287 - ـ فصل : النفس تطلب مالا تقدر عليه .

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس .

و تأملت على الآدمي حاله عجيبة و هو أن تكون معه إمرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقا يلتذ به .

و لذلك سببان : أحدهما : أن تكون غير غاية في الحسن و الثاني : أن كل مملوك مكروه و النفس تطلب ما لا تقدر عليه .

فتراه يضح و يشتهي شيئا يحبه أو امرأة يعشقها و لا يدري أنه إنما يطلب قيدا وثيقا يمنع القلب من التصرف في أمور الآخرة أو في أي علم أو عمل و يخبطه في تصريف الدنيا فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق همه كله معه .

فالعجب لمطلق يؤثر القيد و مستريح يؤثر التعب .

فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له لا قرار و لا سكون .

و إن كانت من المتبرجات اللواتي لا يؤمن فسادهن فذاك هلاكه بمرة .

فلا هو إن نام يلتذ بنومه ولا إن خرج من الدار يأمن من محنه .

و إن كانت تريد نفقة واسعة و ليس له فكم يدخل مدخل سوء لأجلها .

و إن كانت تؤثر الجماع و قد علت سنة فذاك الهلاك العظيم .

و إن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية فيكون هذا ساعيا في تلف نفسه كما قال القائل : .

(نحب القدود و نهوى الحدود ... و نعلم أنا نحب المنونا) .

و هذا على الحقيقة كعابد صنم .

فاليتق ا من عنده إمرأة لا بأس بها و ليعرض عن حديث النفس و مناها فما له منتهى .

و لو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل و طلب ثالثه .

ثم يقع الملل و يطلب رابعة و ما لهذا آخر .

إنما يفيده ذلك في العاجلة تعلق قلبه و أسر لبه فيبقى كالمبهوت .

فكره كله في تحصيل ما يريد محبوبه فإن جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن يبقى أو التلف عاجلا .

و أين المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن يحبه هذا أقل من الكبريت الأحمر .

فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم الهم و لا يلتفت إلى سواد الهوى و غاية المنى يسلم